قراءة
في
كتاب :

# « تاريخ الإسلام في أفريقيا جنوب الصحراء »

# من القرن ٤ ـ ١٠ هـ / ١٠ ـ ١٦ م

تأليف : الدكتور دريد عبد القادر نوري
منشورات : جامعة الموصل ـ الجمهورية العراقية ١٤٠٥ هـ/١٩٨٥ م
عدد الصفحات : (٣٤٤) صفحة

**● عرض الأستاذ : فاضل خليل إبراهيم ●**

**إن دراسة تاريخ أفريقيا ، وإبراز طبيعة العلاقات العربية الأفريقية ، وتوثيقها على مدى التاريخ القديم ، وربطها بالتاريخ المعاصر ، أمر مهم ذو ميزات إيجابية لكلا الطرفين . إذ أن من أهداف الاستعمار العمل على إضعاف تلك الروابط مع أفريقيا المسلمة ، وفك ارتباط عرى القربى والجوار مع الوطن العربي ، من أجل دوام ارتباطها به وبحضارته .**

**ويأتي كتاب « تاريخ الإسلام في أفريقيا جنوب الصحراء » ، محاولة لتسليط الضوء على حقبة تاريخية مهمة من تاريخ الإسلام في بقعة يكاد يكتنفها الغموض ، وبشكل خاص على القارئ العربي ، لأن جُلّ ما كتب عنها هو باللّغات الأجنبية ، وبعض هذه الكتابات ليست أمينة في عرضها للحقائق ، ويشوبها الدس والتلفيق على الإسلام وعقيدته ، لتحقيق مآرب تبشيرية ، مرتبطة بقوى أجنبية .**

والمنطقة ـ موضوع الكتاب ـ تشمل بلاد السودان الكبرى والتي تقع إلى الجنوب من الصحراء الأفريقية الكبرى والممتدة من المحيط الأطلسي غرباً وحتى البحر الأحمر شرقاً ، والواقعة بين خطي عرض ٦° شمالاً إلى ٢٥° شمالاً . إضافة إلى الحبشة والساحل الأفريقي الشرقي .

يقع الكتاب في ستة فصول ، بالإضافة إلى المقدمة والخاتمة والملاحق ، والعديد من الخرائط لفهم بعض الجوانب التاريخية المتعلقة بالموضوع .

يتناول الفصل الأول « أفريقيا جنوب الصحراء قبل دخول الإسلام » . من حيث الإطار الجغرافي واللغة والسكان والعادات والتقاليد والدين والمعتقدات .

إن بلاد السودان الكبرى ، بلاد متسعة الأرجاء ، يحدها من الغرب المحيط الأطلسي ومن الشرق البحر الأحمر ومن الشمال الصحراء الكبرى ومن الجنوب الغابات الاستوائية المطيرة ، وهي تنقسم إلى ثلاثة أقسام : السودان الشرقي والأوسط والغربي . أما جغرافية الساحل الأفريقي الشرقي ، المنطقة التي يسميها الجغرافيون العرب باسم ( أرض الزنج ) فيحدها من الشمال الصحراء ومن الجنوب نهر روفما ومن الشرق المحيط الهندي ومن الغرب البحيرات الكبرى . ويسكن هذه البلاد ، السودان والزنوج ولا يعرف عنهم قبل إسلامهم إلا القليل ، وهم يتكلمون العديد من اللغات أهمها : اللغة السودانية ، ولغة البانتو ، واللغة السواحيلية ولغة الهوسا . أما معتقداتهم قبل الإسلام فقد اتخذت أشكالاً مختلفة ، فهناك جماعة ليس لهم شريعة يراجعونها بل رسوم رسمها ملوكهم ، في حين أكَّدت جماعة أخرى على قوة الطبيعة وعبدت الأسلاف ، بينما اعتقدت جماعة ثالثة بالمجوسية أو الوثنية . ويبدو أن هذه المعتقدات يسودها التشويش ويغلب عليها السحر والشعوذة .

ولهؤلاء عادات قبل الإسلام يغلب عليها طابع البداوة منها : العري والتعري وأكل لحوم البشر ، والاعتقاد بالعرافة . ومن عاداتهم أيضاً تعظيم شيوخ قبائلهم وسلوكهم تعظيماً كبيراً ، حتى اعتبرهم البعض أرباباً من دون الله يطلبون منهم البركة والخصب .

أما الفصل الثاني فيبحث في « أهمية أفريقيا وصلاتها القديمة بالوطن العربي » ، من خلال فقرات عديدة ، منها : « أفريقيا في مصادر التاريخ والجغرافيا العربية » . فقد عرفها العرب منذ وقت مبكر ، وخاصة الرحالة منهم ، حيث سجلوا عنها ما شاهدوه في أسفارهم الشيء الكثير . ومن أبرز هؤلاء : ابن خرداذبه ، والاصطخري ، وأبو زيد السيرافي ، وأبو عبيد البكري ، وابن فضل الله العمري وابن بطوطة وغيرهم .

وقد شهدت أفريقيا جنوب الصحراء ، اتصالاً وثيقاً بالوطن العربي قبل الإسلام ، حيث دلّت الآثار على وجود « صلات قديمة بين اليمن والساحل الأفريقي الشرقي » ، وأكَّدت هذه

الصلات أيضاً المصادر الأغريقية والرومانية . كما كانت هناك صلات أخرى مع « العديد من دول الخليج العربي والعراق وكانت التجارة هي المحور الأساسي الذي قامت عليه تلك الاتصالات » . أما « الصلات القديمة بين شمال أفريقيا وجنوبها » فيبدو أنها واضحة ، وبشكل خاص مع مصر ، فقد أشارت « بعض الدراسات الأثرية إلى أن المصريين ذهبوا إلى السودان الغربي ، وكانت لهم علاقة ببعض سكان غانة » .

وفي الفصل الثالث دراسة عن « انتشار الإسلام في أفريقيا جنوب الصحراء » . عرض فيه المؤلف الخلفية التاريخية لدخول الإسلام في السودان الغربي والسودان الأوسط والشرقي ثم الحبشة والقرن الأفريقي . ففي السودان الغربي « كانت دولة غانة هي أول دولة عرفت الإسلام بشكل رسمي ودعت إليه ، ثم أعقبها دولة مالي الإسلامية التي ضمت تحت نفوذها دولة غانة التي أصبحت تضم مدينة غانة فقط بعد تدهورها . ولما ضعفت دولة مالي كانت قبائل الصنغاي التي تشبعت بالإسلام قد قويت ، وعمد حكامها إلى توسيع دولتهم تحت راية الجهاد من أجل نشر الإسلام ، وما كان منهم إلا أن مدوا نفوذهم نحو الغرب فضموا إليهم دولة مالي المنهارة ، من أجل تشكيل امبراطورية إسلامية قوية ، كي تتمكن من مقاومة القبائل الوثنية في الجنوب » . ومن الواضح « أن الإسلام لم ينتشر في بلاد السودان لولا أن استقر الإسلام في شمال أفريقيا والصحراء الأفريقية الكبرى . ويرجع الفضل في عملية انتشار الإسلام واستقراره في الصحراء إلى المرابطين » . أما في الحبشة والساحل الأفريقي الشرقي ، فكان الإسلام قد « انتشر بشكل سلمي وبمحبة وبالتداخل مع السكان الأصليين عن طريق الهجرة والتجارة . وقد تغلغل الإسلام في الساحل الشرقي كله امتداداً من باجون في ساحل باندر حتى موزمبيق وجزر القمر » .

وفي هذا الفصل إشارة مهمة إلى « سبل انتشار الإسلام في أفريقيا » حددها المؤلف بالنقاط التالية ، **أولاً** : دور التجار في نشر الإسلام ، **ثانياً** : الدعاة والعلماء ، **ثالثاً** : الأربطة ، **رابعاً** : حركات الفتح .

أما « الكيانات السياسية الإسلامية في أفريقيا جنوب الصحراء » . فهي موضوع الفصل الرابع . وكان ظهورها لأول مرة في تاريخ المنطقة كنتيجة طبيعية لظهور الإسلام فيها . واتخذت بعد قيامها مظهراً إسلامياً واضح المعالم يتمثل بخروج الملوك المسلمين إلى الحج ، ثم في اتصالهم بالقوى الإسلامية والتشبه بنظم حكمهم ، ثم باتخاذهم اللغة العربية وسيلة للأداء والتعبير الرسمي ، ثم بتبنيهم سياسة الجهاد ، وأهم هذه الكيانات هي :

**أولاً** : كيانات السودان الغربي ( دولة غانة ـ امبراطورية مالي ـ امبراطورية الصنغاي ) .

**ثانياً** : كيانات السودان الأوسط ( امبراطورية البرنو ـ كانم ) .

**ثالثاً** : كيانات السودان الشرقي والحبشة وساحل أفريقيا الشرقي ( العبدلات ـ دولة الفونج ـ مملكة شوا ـ مقديشو ـ كلوة ) .

ويتطرق الفصل الخامس إلى « الحياة الاقتصادية » ، بما فيها : التجارة والزراعة والصناعة والصيد والرعي . فبعد دخول الإسلام واستقراره في أفريقيا جنوب الصحراء ، شهدت الجوانب الاقتصادية بشكل عام والتجارة بوجه خاص تطوراً جديداً وشاملاً . وأدى ازدهار التجارة إلى ظهور نوع من الترابط المتين بين الوطن العربي والإسلامي مع أقاليم بلاد السودان ، لأن التجارة كانت ومازالت من أهم الوسائل التي تعمل على تسهيل مهمة التبادل الحضاري والفكري بين الأمم . وكانت التجارة تتم بالمبادلة وبطريقة التجارة الصامتة حيث يبدَّل الملح بالذهب . أما أهم السلع التي نشطت تجارتها بعد الإسلام والتي كانت تصدِّرها بلاد السودان للعالم الإسلامي فهي ( الذهب والعبيد ) . فقد كان الذهب هو المنشط الأساسي للتجارة الإسلامية والعصب الذي حرك التطور العالمي في العصر الوسيط ، نظراً لأن ذهب السودان كان المورد الأساسي الذي يغذي مصانع ضرب العملة الذهبية . ومن الصادرات الأخرى : التوابل وأنياب الفيل وريش النعام والأخشاب والعطور والافاوية ، أما أهم الواردات فكان الملح الذي يستخدم في تجفيف الطعام والمحافظة عليه . إضافة إلى الأقمشة والحلي والتمور ...

أما بالنسبة إلى الزراعة ، فقد كانت طبيعة أفريقيا مناسبة لزراعة أنواع عديدة من الحبوب ، نظراً لتوفر مصادر المياه العديدة سواء كان ذلك بوجود أنهار عديدة كالنيل والنيجر والسنغال أو وجود مصادر أخرى للمياه كتوفر العديد من الواحات والبحيرات ( كبحيرة تشاد الكبيرة ) في السودان الأوسط . مع توفر مياه الأمطار الغزيرة . أما أهم المحاصيل الزراعية التي عرفت في المنطقة فهي الذرة والأرز والقمح إضافة إلى زراعة القطن وأشجار جوز الهند والبرتقال والموز ...

أما الصناعة فكانت هي الأخرى مزدهرة ، ومن أشهرها صناعة النسيج والجلود والصابون والأخشاب والتعدين ...

ونظراً لتوفر عوامل طبيعية مناسبة ، من أرض ومياه ، فقد نمت الأعشاب بكثرة واستمرت

حياة الغابات الكثيفة مما قدر لأنواع من الحيوانات العيش في تلك المناطق . وهكذا قُدّر لأفريقيا جنوب الصحراء أن تكون من الموارد الأساسية لتوريد العديد من الحيوانات للعالم .

وينتهي الكتاب بالفصل السادس والموسوم بـ « النظم الإدارية » . وتشمل نظام الحكم وإدارة الدولة والقضاء والجيش وتنظيماته .

كان نظام الحكم في بلاد أفريقيا جنوب الصحراء بعد الإسلام ، بشكل عام ، وراثياً ملكياً ، ولكنه بدا فيه نوع من أنواع الانتخاب ، وربما انتقل الحكم من فرع إلى آخر ، وربما انتقل الحكم إلى أحد رجال الدولة الكبار ( كالوزير والأمير ) ممن كان معروفاً بالشجاعة والمقدرة . وكان للملك ( السلطان ) في بلاده وعلى شعبه مطلق الصلاحيات ، ولم يحدد نفوذه وصلاحياته سوى القاضي المسلم . أما مجالس السلطان مع شعبه فكانت بشكل عام عامرة بالحضور من مختلف الطبقات . وإذا جلس السلطان جلس حوله العلماء والقضاة والطبقة العليا من رجالات الدولة ويحيط بهم السلاح والحراس من كل جانب .

أما إدارة البلاد فكانت من قبل موظفين لا يباشرون أعمالهم في مكاتبهم ولكن في حضرة الملك ، الذي كان يقضي معظم يومه في إدارة بلاده والنظر في المظالم والإشراف على الجيش . وقد ظهرت العديد من المناصب الإدارية منها : وظيفة ( النائب ) وهو لقب يطلق على القائم مقام السلطان وعرف محلياً في دولة مالي ( قنجا ) . ثم تأتي وظيفة الحاجب الذي كان وسيطاً بين السلطان ورعيته . وهناك الوزير أيضاً .

أما القضاء فهو منصب إسلامي بحت ، ويتمتع القاضي باحترام كبير جداً من قبل الزنوج المسلمين . وكثيراً ما كان السلطان يستشير القاضي ويطلب منه النصح والإرشاد ، وقد تمتع القاضي بصلاحيات خاصة لحفظ المؤسسات الدينية والتعليمية ، وفي تعيين الأئمة وإصدار الفتاوى وكثيراً ما كان يتولى بناء المساجد والمدارس أو توسيعها . أما تعيين القضاة فكان يتم بشكل عام بأمر ومشورة السلطان الذي كانت بيده مطلق الصلاحيات ، وكانت له وحده صلاحية النظر في القضايا الإجرامية ، وخاصة ما يتصل بالأمن العام وقضايا المساس بالدولة ، أما القاضي فكان ينظر في القضايا الشرعية وما يتصل بها .

أما بالنسبة للجيش ، فقد كان الاهتمام به ضرورة من الضرورات التي أملتها طبيعة الحال في المنطقة بعد انتشار الإسلام ، حيث برزت عملية الجهاد بين دول الإسلام والدول الوثنية ، وعليه فقد أصبح لهذه الكيانات جيش ثابت ومنظم إضافة إلى العساكر الاحتياطية ، وهم

المتطوعون الذين كانوا يشتركون في الحروب إلى جانب العساكر النظامية لأسباب مصلحية أو عقائدية محببة في الإسلام .

أما مكونات الجيش ، ففي غانة تألف معظمه من عناصر أساسية من قبيلة الملك الساراكولة ، وكان الملك هو القائد الأعلى للجيش . وفي مالي اتخذ الجيش صفة ثابتة وكان معظمه يتألف من شعب الملالكة ومن القبائل الحليفة . وانقسم الجيش في معظم بلاد السودان والساحل إلى فرق عسكرية ، لكل فرقة قائد يرأسها . وهؤلاء القادة والأمراء إلى جانب الملك يشكلون القيادة العامة للجيش . وسلاح الجيش بشكل عام كان في الفترة المتقدمة القسي والنشابة وكذلك الدبابيس . وهناك فرقة الفرسان الذين يحملون في أيديهم الحراب وعلى أكتفاهم النشاب أما فرقة المشاة فأغلب أسلحتهم الحراب والسهام . أما أساليبهم في القتال فكانوا يعتمدون على الكر والفر .... وقد حدثت تطورات في أسلحة الجيش وتنظيماته في عصور مختلفة .

ويختتم المؤلف فصوله الستة بخاتمة يبين فيها فضل الإسلام على بلاد أفريقيا جنوب الصحراء وسكانها . إذ بفضله تعرفوا على وحدانية الله تعالى وأقاموا كيانات سياسية مستقلة ، وامتلكوا ثقافة واضحة المعالم ، استمدوا أصولها من القرآن الكريم والسنة النبوية والفقه الإسلامي .

ووضع المؤلف ثلاثة ملاحق في نهاية الكتاب : الملحق الأول خاص بالتعاريف المهمة الواردة في متن الكتاب مرتبة حسب حروف الهجاء . والملحق الثاني يتعلق بسلطنات الطراز الإسلامي في أرض الحبشة . أما الملحق الثالث فهو « رسائل متبادلة بين سلطان المغرب وحكام السودان الغربي » .

□ □ □

**إن الكتاب ـ موضوع العرض ـ يعتبر مرجعاً لا غنى عنه لكل باحث أو قارئ لتاريخ الإسلام ، فهو رغم تناوله لفترة طويلة بمقياس البحث التاريخي ـ حوالي ستة قرون من تاريخ أفريقيا جنوب الصحراء ـ في صفحات قليلة ، واعتماده التركيب دون التحليل في عرضه للكثير من الحقائق ، فإنه يبقى دليل عمل ومرشداً لمن يريد التخصص في دراسة جانب معين من جوانب الحياة في هذه المنطقة أو البحث في تاريخ إحدى دولها أو كياناتها السياسية . كما أن المؤلف قد أسدى خدمة كبيرة للمكتبة العربية والإسلامية ، في الوقت الذي تفتقر فيه إلى مثل هذه الكتب ، قياساً لما هو مكتوب بالعربية عن فترات تاريخية أخرى للإسلام■**